تذهيب المخطوطات فى الفن الاسلامى

للدكتور زكى محمد حسن

عرف المسلمون منذ القرون الأولى بعد الهجرة تزيين المخطوطات بتذهيب صفحاتها . بل إن ذلك لم يكن عندهم أمراً نادراً كما كان عند الغربيين فى العصور الوسطى .

وأعظم المخطوطات الاسلامية شأناً من الوجهة الفنية هى المصاحف التى كانت تكتب بين القرنين الرابع والسادس بعد الهجرة (العاشر والثانى عشر بعد الميلاد) ، والتى كانت تذهب وتزين بأدق الرسوم وأبدعها . ولا غرو فقد كان الفنانون الذين يزينون الصفحات المكتوبة أرفع الفنانين قدراً بعد الخطاطين أنفسهم ؛ وكان المذهب أعظم أولئك الفنانين شأناً . وحسبنا دلالة على علو مكانته أن كثيرين من المصورين كانوا يضيفون إلى أسمائهم لفظ « مذهب » ، وأن المؤرخين كانوا يعنون بالنص على أن بعض المصورين كانوا مذهبين أيضاً .

وأكبر الظن أن الخطاط كان يتم عمله قبل كل شىء ، ولم يكن يفوته أن يترك الفراغ الذى يطلب منه فى بعض الصفحات لترسم فيه الصور المطلوبة بعد ذلك . وقد وصلنا بعض مخطوطات لم تتم بها الرسوم فى كل الفراغ المتروك . وكان المخطوط يسلم بعد ذلك إلى فنان إخصائى فى رسم الهوامش وتزيينها بالزخارف ، ثم إلى آخر لتذهيب هوامشه وصفحاته الأولى وصفحاته الأخيرة وبداية فصوله وعناوينه وغير ذلك من الزخارف المتفرقة . وفى الحق أن الرسوم النباتية والهندسية المذهبة كانت تصل فى المخطوطات الثمينة إلى أبعد حدود الاتقان ، ولا سيما فى القرنين التاسع والعاشر بعد الهجرة ، (نهاية القرن الخامس عشر وفى القرن السادس عشر) ، حين بلغت الغاية فى الاتزان والدقة وتوافق الألوان .

ولا ريب فى أن تعظيم القرآن الكريم كان يبعث كثيرين من الفنانين على العناية بتذهيب المصاحف ، وكان لتذهيب المخطوطات صلة وثيقة بكتابتها بالخط الجميل ، فعنى القوم بهذا الفن ، وذهب بعضهم إلى القول بأن الإمام على بن أبى طالب كان أول من ذهب مصحفاً ، وبأن كثيرين من الأمراء وعلية القوم نسجوا على منواله ، فأتيح للخطاط المشهور محمد بن على الراوندى (المتوفى فى نهاية القرن السابع الهجرى ، والثالث عشر الميلادى) أن يفخر بمن تلقى عنه فن التذهيب من الأمراء والعلماء وكبار رجال الدين والأدب . وإذا تذكرنا أن المذهبين كانوا يحتاجون فى صناعتهم إلى بعض المواد الثمينة كالذهب وحجر اللازورد والورق الفاخر ، أدركنا ما كان لعناية الأمراء والأغنياء من عظم الشأن فى فن تذهيب المصاحف والمخطوطات .

وليس غريباً أن يصيب الإيرانيون خاصة والمسلمون عامة أبعد حدود التوفيق فى تحلية الصفحات بالرسوم وتذهيبها ، فان هذه الفنون الزخرفية تتفق مع ميولهم واستعدادهم ، حتى أصبحت زخارف الصفحات المذهبة نماذج تنقل عنها الرسوم فى التحف المعدنية والخزفية والجصية ، وفى المنسوجات والسجاد . وكم توصل مؤرخو الفن بفضل ذلك إلى معرفة قسط وافر من تطور الرسوم والزخارف والعصور التى تنسب إليها ، لأن عدداً كبيراً من المصاحف والمخطوطات المذهبة يحمل تاريخ إنتاجه ، وربما كان فيه أيضاً اسم الخطاط والمذهب ، والبلد الذى كتب فيه المخطوط .

ولم يعد تزيين الصفحات فى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) مقصوراً على الـ «سرلوح» أى الصفحة أو الصفحات الأولى المغطاة بالزخارف المذهبة، وعلى العناوين وعلى الجامات (المناطق) التى كان يكتب فيها اسم صاحب المخطوط، وعلى النجوم الزخرفية المذهبة التى كانوا يسمون الواحدة منها «شمسة»، بل صارت الهوامش تزين برسوم الزهور والنبات والحيوان، وبالرسوم الآدمية فى بعض الأحيان.

أما زخارف الصفحات المذهبة فكانت فى البداية خليطاً من العناصر الزخرفية الساسانية والبيزنطية والقبطية، فضلا عن الرسوم المنقولة من كتب اليهود وكتب المسيحيين من أتباع الكنيسة الشرقية.

على أن أقدم المخطوطات المذهبة التى يمكن نسبتها إلى إيران ترجع إلى عصر السلاجقة، وتمتاز باستعمال الورق فى معظمها، وبأنها مكتوبة بالخط النسخى، وبأنها مستطيلة الشكل، وأن ارتفاعها أكثر من عرضها. ومن الرسوم التى يكثر استعمالها فى هذه المخطوطات النجوم المسدسة أو المثمنة والمراوح النخيلية (البالت) والفروع النباتية المتصلة (الأرابسك). وقد بدأت فى عصر السلاجقة طريقة جديدة فى الزخرفة والتذهيب، وظلت قائمة فى العصور التالية، وقوام هذه الطريقة أن تحاط سطور الكتابة بخطوط دقيقة، وأن تملأ الصفحة خارج هذه الخطوط بمختلف الرسوم النباتية و «الأرابسك».

أما عصر المغول فلعل أبدع مخطوطاته المذهبة جزء من مصحف محفوظ فى دار الكتب المصرية. وقد كتب سنة ٧١٣ هـ (١٣١٣ م). بمدينة همذان للسلطان الجايتوخدابنده، وبيد خطاط اسمه عبد الله بن محمد بن محمود الهمذانى. وهو من نوع المصاحف الكبيرة الحجم (٥٠×٤٠ سنتيمتراً) التى كانت تقدم للأضرحة والمساجد، وكان كل جزء منها يكتب فى مجلد على حدة. ويمتاز هذا الجزء — كسائر المخطوطات المغولية المذهبة — بالابداع فى الرسوم والألوان، فهو غنى جداً بالرسوم الهندسية المختلفة، بين نجوم على أضرب شتى ومثمنات ودوائر متشابكة، وغير ذلك من الأشكال الملونة برسوم النبات والأرابسك. ومما يزيد إعجابنا بهذه الزخارف الهندسية أن الايرانيين عامة لم يكن لهم فيها ميدان خاص بل كانوا يقبلون على سائر العناصر الزخرفية أكثر من العنصر الهندسى، ومع ذلك فقد أتقنوها فى هذا المصحف إتقاناً عظيماً.



صفحة مذهبة من مخطوط إيرانى فى العصر الصفوى

واستخدم المذهبون فى العصر المغولى اللون الذهبى والأزرق والأحمر والأخضر والبرتقالى، وكانوا يتخذون الأزرق الغامق مركزاً تحيط به سائر الألوان.

وزاد ازدهار فن التذهيب في العصر التيموري ؛ فثمة مخطوط من الشاهنامة مؤرخ سنة ٨٣١ هـ (١٤٢٧م) يقال إن فيه صورة الخطاط والمذهب والمصور الذين اشتركوا في إنتاجه ، وصورة السلطان بايسنقر الذي قدموا إليه هذا المخطوط ، مما يدل على الاعتراف بفضل المذهب في إخراج المخطوط الفني ، وعلى أنه كان يقرن في هذا الشأن بزميليه : الخطاط والمصور .

ومن أعلام المذهبين في ذلك العصر أمير خليل ومبرك نقاش ، ومولانا حاج محمد نقاش الذي كان خطاطاً ثم مذهباً ثم مصوراً ، بل إنه اشتغل أيضاً بالحيل الميكانية وبتقليد الخزف الصيني .

وقد زاد الاقبال على رسوم النبات والزهور والطبيعة زيادة عظيمة في العصر التيموري ، فكانت تزين هوامش الصفحات ، كما استعملت في زخرفة التحف الفنية المختلفة . والواقع أن العلاقة وثيقة جداً بين رسوم الصفحات المذهبة في العصر التيموري والرسوم المستعملة في سائر ميادين الفن من خزف وسجاد وجلود كتب .



صفحة مذهبة من مخطوط إيراني في العصر الصفوي

وقد ترك لنا بعض المؤرخين الإيرانيين أسماء أعلام المذهبين في العصر الصفوي ، مثل باري ومبرك المذهب وابنه قوام الدين مسعود ومولانا حسن البغدادي ومولانا عبد الله الشيرازي .



صفحة مذهبة في إنجيل من عصر المماليك

ولم يكن عمل المذهبين في هذا العصر مقصوراً على تزيين الصفحات المكتوبة والمرسومة ، بل كانوا يذهبون هوامش الصفحات المصورة . وامتازت المخطوطات الصفوية بتعدد الصفحات المذهبة في أول المخطوط وبتفضيل رسوم الفروع النباتية المتصلة (الأرابسك) ذات الوريقات الدقيقة ، ورسوم السحب الصينية ، كما امتاز بعضها برسوم حيوانية مذهبة في هوامش الصفحات ، على النحو الذي نراه في مخطوط منظومات الشاعر نظامي المحفوظ في المتحف البريطاني ، والذي كتب للشاه طهماسب بين عامي ٩٤٦ و ٩٤٩ بعد الهجرة (١٥٣٩ — ١٥٤٣) . ومن أبدع الصفحات المذهبة في العصر الصفوي ما نراه في صدر مخطوط «بستان» سعدي المحفوظ في دار الكتب المصرية والمؤرخ سنة ٨٩٣ هـ (١٤٨٨ م) . وعليه إمضاء المذهب «ياري» ؛ ومن زخارفه رسم بطة تطير بين سحب صينية ،

ومن من الرسوم الحيوانية النادرة فى الصفحات المذهبة والمزينة برسوم متعددة الألوان .

ولم يدخل على أسلوب التذهيب تغيير كبير منذ العصر الصفوى ، اللهم إلا أن الألوان المستعملة قل غناها وصفاؤها ، بينما أصبحت الدقة فى رسم الزخارف نادرة . وكان هذا كله طبيعياً بعد أن فقد الفنانون قسطاً كبيراً من رعاية الأمراء ، وبعد أن اتصلت إيران بالعالم الغربى ولم يعد للمخطوطات ما كان لها قبل ذلك من عظم الشأن .

أما فى مصر فإن أبدع المصاحف المذهبة فيهـا ترجع إلى عصر المماليك ، وتمتاز برسومها الهندسية الجميلة ، كما يظهر من المجموعة الطيبة المحفوظة فى دار الكتب المصرية . بل إن تزيين المخطوطات بالرسوم الجميلة وتذهيبها لم يكن وقفاً على المصاحف والكتب الاسلامية فحسب ؛ فقد كان الانجيل والكتب الدينية المسيحية تذهب وتزين صفحاتها بالرسوم الهندسـية والنباتية العربية الطراز ، كما نرى فى بعض المخطوطات الثمينة المحفوظة فى المتحف القبطى .



صفحة مذهبة فى مصحف من عصر المماليك

وكان تذهيب المخطوطات فى تركيـا شديد التأثر بفن التذهيب فى إيران . كما أن الفنانين فى الأندلس والمغرب الأقصى كانوا لا يختلفون كثيراً عن الفنانين المصريين فى أساليبهم الفنية فى هذا الميدان .

زكى محمد حسن
